في النســـيان

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أعوذ بالله من قولة « أنا » ؛ ولكني مصاب بنفسي وهذا عذري. وشر ما أصبت به منها النسيان ؛ وحسبك به بلاء عظيما. وقد صرت بفضله — أو من جرائه — امرأ له الساعة التي هو فيها ، فأعفيت من الهموم كما أعفيت من اللذاذات أو المسرات ومن ذكرياتها الحلوة . ولا آسف على ذلك فقد تكافأ الربح والخسارة . ولو أراحني الناس كما أراحتني نفسي لتمت لي السعادة في هذه الدنيا الدنية . ويبلغ من نسياني أني أكون ذاهباً إلى فراشي في الليل فأراني أقف أمام السرير متردداً حائراً لا أدرى ماذا جاء بي إلى هنا . أهي علية السجائر ، أم أريد المعطف أو العباءة ؟ هذا في الشتاء — أم ماذا يا ترى ؟ ثم أستخير الله وأقول لنفسي : « نم يا شيخ وأرح نفسك من عناء المحاولة فما فيها فائدة »

وأرقد على فراشي ... في نفسي معان وتتمثل لذهني صور أتعلق ... أغمض عيني — وقد قرت — وأقول إن شاء الله ... الفصل أو أرسم الصورة أو أقص القصة .. وأقرأ ... وآية الكرسي ليحفظني الله من العين وأنام . ويطلع الصبح فأ... ستيقظ مع الدجاج فإذا بي قد نسيت كل شيء ، وإذا بالصور والمعاني قد ... مسحت بقدرة ربك من اللوح ولم يبق منها ولا أثر ضئيل يدل عليها و... يهدى إليها ، ويساعد على رجع ما ولى منها ، فأتعزى بأن الذي لا أجد ... لا يزال هناك وأنه غاب ولكنه لم يمح ، وقد تنتعش به الذاكرة فجأة ... فهو ما رسب ويتفق أن أقف أمام المرآة لأسرح شعري أو أسوي ربطة الرقبة أو أفعل غير ذلك من الشؤون التي تحوج ... المرايا — وإن كنت أنا أستطيع ذلك كله بغير معونتها — ... إذا صرت أمامها وقفت متعجباً متسائلاً : « لماذا يا ترى أنظر في المرآة ؟ » وأرفع يدي إلى جبيني وأفركه وأحاول أن أتذكر ، ولكن الأمر يعييني فأهز رأسي وأمضي لشأني

وأقول وأنا ماض إلى عملي اليومي : إني سأكتب كيت وكيت ، ويشغلني ذلك طول الطريق ، وأصعد إلى مكتبي وألتقي بإخواني وزملائي ويجر اللقاء الى التحدث في أمور شتى من عامة وخاصة ، حتى إذا خلا المكان وتناولت القلم وأقمت سنه على الورقة رأيتني أتساءل : في أي شيء كنت أنوي أن أكتب يا ترى ؟ . وكيف أمكن أن أنسى بهذه السرعة العجيبة وقد كنت مشغولاً به طول الطريق ؟ . وأحتاج أن أبحث عن موضوع آخر . . ومن يدري . . فقد يكون الموضوع الذي أهتدي إليه بعد العناء هو بعينه الذي نسيته وأنا أحسبه غيره

ومن كثرة نسياني تحتاج الخادمة أن تحاسبني كلما هممت بالدخول أو الخروج ، فإني أفقد مناديلي لأني أنسى أين أتركها ، أو ألقيها ولا أذكر ماذا صنعت بها ، وزوجتي تعدها مسئولة عن هذه المناديل التي لا ينتهي الخلاف عليها ولا ينقطع الجدال من جرائها . فأنا أزعم أني تركتها حيث ينبغي أن تترك هذه الأشياء ، والخادمة تنفي ذلك وتؤكد أني لم أفعل — بأدب طبعاً — وتقسم أنها عدتها فألفتها ناقصة ؛ وزوجتي تحدق في وجهي وتسألني : هل أكون مستريح الضمير إذا صدقوني ؟ ومتى وصل الأمر الى الضمير والذمة فأنه لا يسعني إلا أن أتردد وأقول بالأرجح والمعقول كأنها قضية منطقية

فتشير زوجتي الى الخادمة وتقول : « بكفي ... اذهبي يابنت » فتذهب البنت ولكنها تواجهني حين أهم بالخروج وتسألني كم منديلاً معي ؟ فأصيح « أوووه . . وهل أنا أعرف ؟ . سبحان الله العظيم ! ألا يمكن أن يستريح المرء في هذا البيت ؟ . ما معنى هذا التعطيل ؟ . تنحي من فضلك »

فتقول : « أرجو أن تعدها »

فأقول : « وما الفائدة ، ما دامت تضيع . . . . همه »

وأخرجها من الجيوب وأعدها وأقول « ثلاثة » مثلاً

فترجو ألا أنسى أنها ثلاثة ، فأقول : « طيب . طيب »

وتفتح لي الباب وأنا عائد وتسألني عن المناديل ، فأخرج ... أحمل منها وأرمي به اليها وأمضي عنها ، فتدركني وهي تصيح : « هذه أربعة . . . من أين جاء الرابع ؟ »

وأقول : « من أين جاء ؟ . . ماذا تعنين .. ربما ... أن ... تكون أخذت منديل صديق ...

وتقول ...

فأتعجب ...

كنت اشتريته .

فتقول : « ألا يعمر ...

وأنت . . . وأنت . . . ! »

وعنعها الأدب والحياء أن تنطق باللفظ فأنوب أنا عنها وأقول « ذاهل . . . أليس كذلك ... كلا لم يبلغ الأمر هذا الحد . . »

فتلح وتقول : « ولكن من أين جاء إذن ؟ »

فأقول متململا : « أوووه . . . إن شكواك لا تنقطع من أن المناديل تنقص وأنت الآن تزعمين أنها زادت واحداً فاحمدي الله إذن وأريحيني »

ولكني لا أرتاح منها ولا من ستها ولا من الأطفال ، ولا أزال أرى من يجري ورائي منهم ويخبرني أني نسيت الجورب أو لبست اثنين مختلفين ، أو تركت الطربوش وبوشك أن أخرج برأسي عاريا ، الى آخر هذه التوافه التي لا أعرف لها آخرا

وأحسب أن نسياني إنما يشتد لأن رأسي لا يخلو من شيء يدور عليه تفكيري ويستغرقني ذلك حتى لأذهل عما عداه ؛ وقد كانت أمي — عليها رحمة الله — تتعجب لأمري وتقول لي : « يا بني ما الذي يطير عقلك ؟ »

فلا يعجبني هذا وأقول معترضا : « إن عقلي لم يطر . . ثم إن هذا غير معقول . . أم تظنينه حمامة »

فتقول غير عابئة بملاحظتي : « لم يكن أبوك هكذا . . ولا أنا مثلك . . إنك لا تتذكر شيئاً أبداً »

فأقول : « إني من صنعكما — أنت وأبي المحترم — فأين ذنبي بالله ؟ »

فتقول مستاءة : « لماذا لا تتكلم خيرا ؟ »

فأقبلها وألثم يدها وأسترضيها وأقول معتذرا : « ماذا أصنع إذا كان ربي قد خلقني هكذا . . . واسع خروق الرأس كالغربال القديم »

فتبتسم وتدعو لي الله أن يرد علي ما غرب من عقلي ، فأتقبل دعاءها بالشكر وأمري الى الله

والأم تحتمل ابنها وتصبر على ما يكون من ذهوله ، ولا تسيء به الظن ، وليست هكذا الزوجة فانها تحمل ذلك على غير محمله ، وتؤوله بأنه قلة اكتراث وعدم مبالاة ، وأن الرجل لا يفكر فيها ولا يفرض لها وجودا ولا يقيم لها وزنا إلى آخر هذا الهراء ؛ وهي سليمة لا تخونها الذاكرة ، فليس في وسعها أن تدرك بلاء النسيان وأن تعذر المنكوب به . ومن العبث أن يقول لها المرء إن كثرة المشاغل هي التي تطير من الرأس كل ما عسى أن يكون فيه . إذن لماذا لا يشغل الرجل بها هي ولا ينسى ما عداها هي . . . ؟ هذا هو المشكل

وما دخلت البيت مرة إلا شعرت أني لا بد أن أكون قد نسيت شيئاً أوصتني به زوجتي ، فأقول لنفسي : « سترك اللهم .. وعونك أيضاً » وقد أكون مخطئاً ولكن الخطأ لا يمنع الشعور الثقيل . وكثيراً ما يتفق أن يكون ظني في محله ، فلا تكاد ترى وجهي الناطق بتوقع اللوم حتى تبتدرني بقولها : «بالطبع نسيت» فأقول وأنا أتكلف الضحك : « أي والله . . صدقت . . الحق أن فراستك قوية »

فتقول : « وما العمل ؟ »

فأسأل متحرزاً : « في أي شيء ؟ »

فتقول : « في أن تذكر . . كيف نحملك على التذكر ؟ »

فأقول : « اربطي لبسة في رجلي فأضطر أن أتذكر كلما سمعت كركرتها »

فتقول : « إني جادة »

فأقول : « نكتب الشيء في ورقة واضعها في جيبي أو مع الساعة»

فتقول : « وتنساها في جيبك . . وتخرج الساعة فترى الورقة فترميها وأنت ذاهل »

فأقول : « ألبسيني الجاكتة مقلوبة .. أزرارها إلى الخلف »

فتهز رأسها وتقول آسفة « كلا . . لا فائدة . . الأمر لله .. لو كان شيئاً يعالج . . ولكنه مستعص ... لا علاج له »

فأقول متشهداً : « صدقت يا امرأة .. أما والله إنك لمنصفة .. جزاك الله خيراً وقواك على احتمالي »

وأعترف أني كثيراً ما أنتفع بالمعروف المشهور من نسياني ، فاذا سألتني عما لا أريد أن أبوح لها به أو أذكر الحقيقة فيه تظاهرت بالبلاهة وقلت : « وهل أنا أعرف ؟ . وأين العقل الذي يتذكر ؟ . . »

وما قرأت كتاباً إلا نسيت ما فيه — نسيته جملة وتفصيلاً ؛ حتى اسمه واسم كاتبه ؛ وقد أعود إليه فكأني ما قرأته ولا سمعت به ، فهو في كل مرة أعود فيها إليه جديد ولو كنت قرأته عشر مرات ؛ وهذا نافع لأن فيه اقتصاداً . وكم من كتاب اشتريته ثم